ثلاث مقالات فى نظرية الجنس " لسيجموند فرويد "

بقلم : الدكتور أحمد فائق

مقدمة :

فى أحد الأيام سأل ارنست جونز (١) أستاذه وصديقه سيجموند فرويد (٢) عن أقرب كتبه الى نفسه ، فالتقط فرويد من مؤلفاته كتابيه « تفسير الأحلام » (١٩٠٠) و « ثلاث مقالات فى نظرية الجنس » (١٩٠٥) ثم قال : « أتوقع لهذا الكتاب (ثلاث مقالات فى نظرية الجنس) أن يصبح قريبا مألوف المادة بتقبل الناس لما يحتويه من معرفة ، أما الآخر (تفسير الأحلام) فسوف يعيش مدة أطول » • وأردف قائلا : « لقد قدر لى أن اكتشف ما هو بديهى ؛ أن للأطفال مشاعر جنسية وهو ما تعرفه أى مربية ، وأن أحلام الليل لا تختلف عن أحلام النهار قدرة على تحقيق الرغبات » •

وقد صدق حدس فرويد بمستقبل كشفيه الى حد كبير • فما لقيه كتاباه من مصير كان قريبا مما توقعه مع اختلافات طفيفة عن النسق الذى تصوره • فبعد ما يقرب من سبعين عاما على كشفه الأول وخمسة وستين عاما على كشفه الثانى ، نجد أن فكرته العامة عن الأحلام قد قبلت ، كما بقيت بعض ملاحظاته عن علاقة الجنس بالأمراض النفسية تثير دهشة متجددة• لكن لا ينفى ذلك أن مقالاته الثلاثة فى نظرية الجنس قد بقيت حتى الآن نواة للتحليل النفسى عملا ونظرية ، لم يطرأ عليها تعديل كبير يغير من قيمتها فى نظرية الأمراض النفسية ، كما أنها ظلت تتأكد فى الخبرة العيادية للمحللين النفسيين دون أن يزيد عليها أو ينقص منها ما يغير فيها تغييرا جوهريا •

تعريف أولى بالمقالات .

نشرت المقالات الثلاثة عام١٩٠٥ ، وقدم فرويد لثلاث طبعات منها هى التى ظهرت اعوام ١٩٠٩،

---

(١) ارنست جونز Ernest Jones • محلل نفسى ورئيس الجمعية الدولية للتحليل النفسى خلال ما يزيد على عشرين عاما ورئيسهاالفخرى حتى وفاته • وكان من أكثر العارفين بفرويد مما سمح له بأن يضع مؤلفا من ثلاثة اجزاء عن حياته واعماله •

(٢) أنظر تراث الانسانية ، المجلد الأول ، العددين الخامس والسادس •

١٩١٤ ، ١٩٢٠ • وتحمل المقالات الثلاثة العناوين الآتية : الانحرافات الجنسية ، والجنسية الطفلية ، واستحالات البلوغ ؛ كما أن لها خلاصة صغيرة منفصلة • وقد ظلت المقالات بدون أى تعديل جوهرى فى طبعاتها المختلفة عدا اضافات أدخلها فرويد على النص الأصلى دون أن يغير من فكرها الأساسى ، لتبقى على حالها كتراث تحليلى نفسى• فرغم ما جد على نظريته فى الجنس من تعديلات انتهت الى انقلاب فى نظرية الغرائز عموما ، أبقاها فرويد على ما كانت عليه • لذلك يقول فى مقدمة الطبعة الثانية « ومن ثم فهو (المؤلف) يعاود طبع النص الأصيل بتعديلات طفيفة ، قانعا باضافة هوامش قليلة تميزها عن القديم منها منجمة ، وكذلك فان أمنيته الصادقة لهى أن يتقادم العهد بالكتاب سريعا • وأن يصبح ما كان فيه جديدا ذات مرة موضع قبول عام ، ويستبدل ما هو ناقص بشىء أفضل » • وفى الطبعة الثالثة يقول : « وقد أضفت الى هذه الطبعة الثالثة اضافات عدة دون أن أعلمها بعلامات خاصة كما فعلت فى الطبعة السابقة ، وان كان العمل العلمى فى ميداننا قد خفت من سرعة خطاه الآن ، الا أنه كان من الضرورى الحاق اضافات معينة بهذا الكتاب كيما يظل معقود الصلة بالمؤلفات التحليلية المستحدثة » • وكانت الاضافات فى تلك الطبعة عبارة عن مزيد من الملاحظات • أما فى مقدمة الطبعة الرابعة فلم يذكر فرويد شيئا عما أضافه وان كان قد أضاف بل واستمر يضيف على النص حتى عام ١٩٢٤ • وقد بلغت الاضافات على النص الأصلى مئة وخمسين اضافة ، منها اثنتين وخمسين للمقال الأول ، وثمانية وأربعين للمقال الثانى ، واثنتين وثلاثين للثالث ، وللخلاصة ثمانية عشرة•

وتتركز أهمية المقالات الثلاثة بخلاصتها فى أنها كانت مفاجأة مركزة للباحثين فى علية الأمراض النفسية ومدخلا جد جديد على الفكر البشرى لفهم الحياة النفسية • فعلى خلاف ما يتوقع من عنوانها ، ليست المقالات دراسة للغريزة الجنسية ، بل دراسة فى أسباب الأمراض النفسية وبحث فى أسبابها • فرغم ما أثبته فرويد من ملاحظات على الغريزة الجنسية لا تحتاج الى مهارة خاصة لفهمها أو الانتباه اليها ، أمكنه أن يستخلص منها صلتها بتكوين الأمراض النفسية بأسلوب لم يتأت لأحد غيره من قبل ، ولم يكن ليتأتى الا بفحص للحياة الجنسية من قبيل ما فعل • ويقول هو فى ذلك : « لا محل ••• لامكان التوسع فيها (المقالات) لكى تصبح نظرية جنسية كاملة الأطراف » • وفضلا عن أن المقالات الثلاثة ـ وبالرغم من أنها زاخرة بتفاصيل النشاط الجنسى ـ لا تمس طبيعة الجنس فى ذاته ، فانها تطرح بصدده تساؤلات تبدو اجابتها بديهية ولا يمكن أن تخرج عن استخلاصات فرويد • عدا ذلك ، يستطيع القارىء أن يتبين أسلوب فرويد فى تناول المشاكل ووضعه الحلول لها ، وطريقته فى طرح القضايا واستخلاص قوانينها ، من تتبعه للمقالات الثلاثة • ففى المقالات الثلاثة تتجلى الملكة العقلية لفرويد بشكل يسمح للقارىء أن يدرك منها ما كان يعنيه فرويد بالبديهية •

والواقع أن المقالات الثلاثة تعد قمة مرحلة هامة فى تفكير فرويد وفى نظرية التحليل النفسى عامة • هذه المرحلة هى ما يعرف بمرحلة نظرية الليبيدو Libido Theory • ففضلا عن أنها مرحلة الكشوف التى بهرت الطب النفسى لجدتها وغرابتها وقلبت نظرياته فى الأمراض النفسية

رأسا على عقب ، كانت أيضا مرحلة تتميز بغزارة انتاج فرويد فيها وبداية مشاركة غيره له فى الكشوف التحليلية • فمع مطلع القرن تكونت جمعية فينيا للتحليل النفسى ولم تمض عشر سنوات حتى تكونت الجمعية الدولية للتحليل النفسى • وأقبل الكثيرون على التحليل النفسى حيث كانت نظرية الليبيدو هى نظريته • واذا كانت المقالات الثلاثة هى قمة هذه المرحلة ، فانها بذلك تصبح ذات قيمة هامة فى تراث الانسانية لعدة أسباب : أولا : لأنها جمعت فى حيز واحد حصيلة عمل جاد دام خمسة عشر عاما فى ظلام غياب المعرفة بالنفس فغدت نقطة وسطا بين حقائق شتات تجمعت مثلها وانطلاقة واضحة تلتها دون تغير لمدة عشر سنوات • ثانيا : أن الكشوف التحليلية التالية على نظرية الليبيدو لم تكن لتتم لو لم تمر عبر هذه النظرية ومن خلال ما وضحه فرويد فى المقالات الثلاثة • فبذور انقلاب نظريته فى الغرائز يتجلى فى مواضع عدة من مقالاته الثلاثة ، كما أن اضافاته انما كانت اشارات لما جد عليها • ثالثا : أن المقالات الثلاثة فى نظرية الجنس كانت فى أصلها مبحثا فى العلية المرضية للنفس• لذلك بقى أثر هذه النظرية على نحو من الأنحاء باديا ومؤثرا فى تفكير فرويد وعبر حياته العلمية العريضة حتى آخر مؤلفاته • فرغم تطور نظرية التحليل النفسى بعد كتابة المقالات الثلاثة ، واكتشاف فرويد العديد من الحقائق التى مكنته من نفاذ أعمق الى النفس ـ وخاصة فى مؤلفه مابعد مبدأ اللذة (١٩٢٠) ـ ظلت لنظرية الليبدو مكانة واضحة فى الصياغات النظرية للعصاب ، وللصياغات الفلسفية أو ما بعد التحليلية للنفس•

لقد كانت المقالات كشفا لما هو بديهى وبقيت حتى الآن تبهر القارىء لبداهة ما بها من حقائق• ولكن يجمل قبل التعرض للمقالات أن نعرض مجرى تطور الكشف الذى أوقع فرويد على هذه البديهية ومن ثم على نظرية الليبيدو فى تفسير الأمراض النفسية •

تطور بحوث فرويد قبل المقالات الثلاثة :

كان من غير المتوقع لفرويد وهو من رجال معامل فسيولوجية وتشريح الجهاز العصبى أن ينمو لديه اهتمام بالهستيريا ، ذلك المرض الذى تحدى التقاليد الطبية بكل ما فيها من تزمت• فقد كان فرويد طبيبا يعمل مع « بروكه » فى معمله الفسيولوجى ويلتزم بمبادىء الفكر الطبى الذى يرفض تفسير أى مرض بمفاهيم غير فسيولوجية أو كيميائية حيوية • ولكن بمجرد أن تعرف فرويد ببروير عام **١٨٨٢** وأطلعه بروير على نتائج علاجه لحالة هيستريا بالتنويم الايحائى ، حتى شغف فرويد بذلك وتخلى بالتدريج عن تراث أطباء فيينا فى أواخر القرن التاسع عشر •

وفى عام **١٨٩٥** نشر فرويد وبروير « دراسات فى الهستيريا » ضمناها بحوثهما التى كان بروير هو البادىء بها عام **١٨٨٠ ـ ١٨٨٢** • وكان التفسير الذى بلغاه بصدد العلة المرضية للهستيريا لا يخرج عن أن الأعراض هى بقايا لصدمات انفعالية محتبسة لا يشعر المريض بها (لاشعورية) فتجد منصرفها فى أمراض عضو من أعضاء الجسم ، أو فى اثارة حالات من الغياب Absence واعتمد بروير وفرويد فى العلاج على وضع المريض فى حالة تنويمية يتأثران فيها منشأ الصدمة حتى يفرج المريض انفعالاته الحبيسة والمسببة لأعراضه • وأطلق على طريقة العلاج تعبير العلاج

بالتفريج أو التفريغ. ولكن أهم ما فى هذه المرحلة هو انتباه فرويد الى المشاكل الجنسية التى لم يكن يخلو مريض منها ، مما جعله يختلف مع بروير فى تقدير أهمية العامل الجنسى فى علية الهستيريا. ولكن ما انقضى وقت طويل حتى استطاع فرويد أن ينشر مقاله « الجنسية والعلية » عام ١٨٩٨ ليؤكد ذلك وليضع أول ركيزة لعلاقة القلق بالجنس .

ولسبب أو لآخر تخلى بروير عن الاهتمام بكشوفه الهامة فى الأمراض النفسية ، وقام فرويد بتحمل العبء كله . ولم يعد هناك ما يلزم فرويد بتقييد اهتمامه المتزايد بالقضية الجنسية . ففى خلال الفترة من ١٨٩٠ حتى عام ١٨٩٦ أوضح فرويد مفهوم الدفاع ضد الخبرات الصدمية ، ثم وضع مفهوم المقاومة التى يصطنعها الشعور بعملياته النفسية لمنع الخبرات الصدمية من غزوه حيث أنها تكون لاشعورية . وفى عام ١٨٩٧ تخلى فرويد نهائيا عن التنويم الايحائى كوسيلة علاجية واستبدل بها التداعى الطليق ليؤسس التحليل النفسى بمعناه المعروف حاليا . ولم يكن من الصعب على فرويد أن يدرك أن المقاومة الشعورية للانفعالات الحبيسة المرتبطة بالصدمات ، هى الشكل الشعورى لنفس القوة النفسية التى أدت الى تقييد تلك المشاعر الأليمة وعزلها عن الشعور. وأطلق عليها تعبيره الشهير « الكبت » .

وبقى فرويد عدة سنوات يحاول مزيدا من التعمق ويغالب المادة التى يتعرض لها فى عمله كما كان يغالب نفسه بما فيها من نزعات مقاومة حتى تأتى له أن يكتشف أمرين : أولا : ان ماكان يعتقد فيه سابقا من تعرض مرضى الهستيريا لاغراءات جنسية فى طفولتهم من الراشدين لم لم يعد صحيحا بعد أن تبين مساهمة هؤلاء الأشخاص وهم بعد أطفال فى ممارسة أنواع من الاغراء الجنسى للراشدين . فلم تعد الصدمات الجنسية خارجية بل داخلية . ثانيا : أن للأحلام معنى ودلالة وأنها تطل على لاشعور المريض وتكشف عنه بأساليب خاصة ، تمكن هو من فك طلاسمها ، وبذلك بدت الطفولة على قدر كبير من الأهمية فى تكوين الأعراض مما جعله يدرك الموقف الأوديبى كنواة لتكوين الخلق العصابى والسوى .

وعلى مشارف هذا القرن كانت المادة التحليلية قد سمحت لفرويد بأن يقدم أجل كشفين فى تاريخه وهما « تفسير الأحلام » و « الجنسية الطفلية » . ففى تفسير الأحلام تناول فرويد طريق الكشف عن اللاشعور والحيل التى يصطنعها الشعور فى اخفاء معالم المكبوت ، وقدم كذلك أول تخطيط للجهاز النفسى . الا أن أهم ما فى هذا الكتاب هو كشفه عن النكوص الى القديم فى تناول الحديث . وفى تناوله للجنس أدرك بسرعة غريبة مدى ارتباط الحياة الجنسية الحاضرة للمرضى بأعراضهم كما أدرك قدر وكيف النكوص الذى يطرأ على النشاط الجنسى للمرضى الى أساليب اشباع طفلية قديمة. وبذلك أوضح مفهوم التثبيت على الطفولة وعلى الجنسية الطفلية ليجعل اكتشافاته مع بروير ذات معنى . فالصدمات النفسية المسببة للمرض غدت خبرات جنسية أليمة. كما أصبحت الأعراض حلا وسطا بين نزوع الرغبات الطفلية القديمة للاشباع وبين قوى الكبت. فضلا عن ذلك أصبح تفسير حبسة الانفعالات قائما على مفهوم القلق الذى يعترى الشعور عند الحاح المكبوت على الاشباع . واتسقت على هذا النحو عناصر

نظرية كمية فى تفسير المرض النفسى قوامها الطاقة الجنسية وحبستها وانطلاقها واستثمارها وتحولها الى وجدان مؤلم (القلق) وانحرافها عن موضوعاتها وأهدافها ٠

والواقع أن المقالات الثلاثة تعد نقطة تجمع للمراحل الأسبق عليها من البحث ونقطة الانطلاق الى مرحلة تلتها استمرت حتى عام ١٩١٧٠ ففى ذلك العام تنبه فرويد الى بعض الحقائق التى غيرت فيما بعد الكثير من نظريته عن الغريزة الجنسية ، تلك الحقائق هى المتعلقة بالنرجسية ، ولكن ذلك لم يمنعه عندما قام بنشر الطبعة الرابعة للمقالات الثلاثة عام ١٩٢٠ من أن يبقيها على حالها رغم أنه نشر فى نفس العام كتابه العظيم « ما بعد مبدأ اللذة » ، والذى ضمنه انقلاب نظريته فى الغرائز واكتشافه غريزة الموت فى مقابل غريزة الحياة ، تلك التى يعد الجنس جزء منها ٠

المقالات الثلاثة :

المقال الأول : الانحرافات الجنسية

يبدأ المقال الأول بكشف فرويد للتزييف الذى يتضمنه التعريف الشائع للغريزة الجنسية٠ فذلك التعريف يحد الغريزة الجنسية بموضوع محدد هو فرد من الجنس الآخر ، وبهدف هو الاتحاد بالموضوع عن طريق الأعضاء التناسلية ٠ ولا شك أنه من البديهى أن هذا التعريف قاصر غاية القصور ٠ فكثير من ضروب اللذة الجنسية لا يقتصر على فروض الجنس الآخر كما أنه لا يقتصر على الاتحاد بواسطة الأعضاء التناسلية٠ لذلك يرى فرويد أنه لا بد أن نعتبر الجنس دافعا غريزيا للاستمتاع ، ليس له هدف ثابت كما أنه ليس مرتبطا بموضوع محدد ٠ ثم يبدأ مناقشة هذا الرأى باقتراح مصطلحين : الأول هوالموضوع الجنسى والثانى هو الهدف الجنسى ، ليدخل الى مناقشة « الدافع الغريزى » متحررا من الزيف الذى يفرضه التعريف الشائع للجنس ٠

يتناول فرويد فى البداية الانحرافات الجنسية التى تطرأ على الموضوع الجنسى ، ويقسمها الى قسمين : الأول هو الارتكاس وهو أختيار الشخص موضوعا جنسيا من نفس جنسه ، والقسم الثانى هو اختيار الموضوع الجنسى من أناس لم ينضجوا تناسليا بعد (الأطفال) أو من الحيوانات٠ وأوضح فرويد أن الارتكاس قد يأخذ ثلاث صور الاولى صورة مطلقة : حيث يقتصر الفعل الجنسى فيه على شخص من نفس الجنس ، وصورة خليط حيث لا يمتنع الفعل الجنسى مع شخص من جنس مخالف مع وجود نشاط مع شخص من نفس الجنس ، وصورة عرضية يمكن للفعل الجنسى السوى فيها أن يختفى ويظهر بدلا عنه فعل ارتكاسى لظروف قهرية ٠ ثم أوضح فرويد أن موقف المرتكسين من ارتكاسهم يختلف ، فالبعض يراه أمرا طبيعيا مشروعا ، والبعض يستهجنه فى نفسه ولكنه يشعر به قهرا لخلقه ونزوعا لا يستطيع مقاومته ٠ ولكنه يبدى ملاحظة اضافية الى ملاحظاته السابقة فيبين أن الارتكاس فى أى صورة قد يكون مرتبطا بفترة محددة من العمر أو يستمر طوال حياة الشخص ٠

ويدحض فرويد وجهات النظر الخاصة بتأويل الارتكاس ، فيبين أن ارجاعه للانحلال العصبى لم يثبت لدى المرتكسين ، كما أن فطريته لم تتأكد الا فى فئة متطرفة من المرتكسين الذين لم يبد على نشاطهم الجنسى وطوال حياتهم ومنذ طفولتهم أى بادرة لاختيار شخص من الجنس

الآخر موضوعا • وازاء دحضه للتأويلين السابقين يظهر فرويد أن فحص تاريخ هذه الحالات سوف يكشف عن وجود انطباعات جنسية مبكرة أو خبرات جنسية طفلية قد أثرت بما يفهم فى ضوئه الارتكاس ، والأهم من ذلك امكان استبعاد الارتكاس بالتنويم الايحائى وهو ما يتناقض مع التأويلين السابقين ، ويستمر فرويد فى دحض حتى الآراء التى تربط بين الخنثوية التشريحية والخنثوية النفسية ، ليخرج الى أهم ما يميز الموضوع الجنسى للمرتكسين وهو بحثهم عن خواص الجنس الآخر فى نفس جنسهم •، أما بالنسبة الى هدفهم فيتنوع الى حد كبير بحيث يضع فرويد من فحص الهدف حقيقة واضحة مؤداها أننا نضيق ونحد بدون مبرر من مفهوم الجنس ، اذ أنه من الواضح عدم ارتباط الجنس بموضوع محدد يسأل عن اثارته فى الشخص •

أما اختيار موضوعات جنسية من الحيوانات أو الاطفال فيدل فحصه على تأكيد ارتباط الانحرافات فى اختيار الموضوع بشدة الاضطراب العقلى • فكلما تجاوزت الغريزة الجنسية حدود المواصفات الحضارية ، دل ذلك على تجاوز العقل حدود سوائه • ولكن الأهم من ذلك أن الموضوع الجنسى لا يحتل مكان الصدارة فى النشاط الجنسى •

ثم يتناول فرويد الانحرافات فى الهدف الجنسى • فمن الشائع أن الفعل الجنسى هو اتحاد بين الاعضاء التناسلية يؤدى الى خفض توتر الغريزة أو طاقتها • ويطلق علميا على طاقة الغريزة لفظ الليبيدو Libido ولكن خفض التوتر على هذا النحو لا بد وأن يسبقه عمليات تمهيدية وسيطة لاطلاق الليبيدو • لذلك يكشف فرويد عن احتمالين للانحراف الجنسى من حيث الهدف هما : انحراف يجعل للامتدادات التشريحية للاعضاء التناسلية قيمة أبرز من الأعضاء نفسها ، وانحراف يعطى للعمليات التمهيدية للجماع القيمة العليا للاشباع • وبالنسبة للاحتمال الأول أوضح فرويد أنواعا من الانحرافات تستخدم فيها أعضاء غير تناسلية بدلا عن الأعضاء التناسلية ، مثل فتحة الفم والشرج • كما أوضح أن وجود انحراف عن الهدف الجنسى برمته واستبداله بأثر من أثار هذا الهدف (الفيتيشية) • أما بالنسبة للاحتمال الثانى وهو الخاص بالتعطل عند المراحل التمهيدية للفعل الجنسى فأورد فرويد بعض مظاهره كالاكتفاء باللمس أو النظر أو باستبدال القسوة سواء السالبة أو الموجبة بالفعل الجنسى • وخرج من ذلك الى حقيقة أخرى لها أهمية بالغة هى أن دوافع الانحراف عن الهدف توجد فى أزواج متضادة ، وتواجدها متضادة ربما يكشف عن طبيعة الغريزة الجنسية وطاقتها الليبيدية •

ويوضح فرويد بعد ذلك أن الانحرافات الجنسية فى عمومها ليست الا زيادة مبالغة لعناصر توجد فى الحياة الجنسية السوية ونقصا مبالغا لغلبة السواء الجنسى • لذلك يرى لانه لا يمكن ارجاع أمر الانحراف الى أمور فسيولوجية خالصة لوضوح فاعلية العامل النفسى فيها • ويخرج من ذلك الى نتيجتين : أن الغريزة الجنسية تصارع بعض القوى النفسية لتبلغ سواءها • • فاذا تغلبت هذه القوى قبل نضوج الجنس حدث الانحراف • كما أن الفحص الاكلينيكى للحياة الجنسية يوضح أن الغريزة الجنسية مركب من عديد من الدفعات تتآلف فتؤدى الى السواء أو تتفكك فتعطى الانحراف •

بعد ذلك يتحول فرويد الى عرض نتائج دراساته

لعلاقة الغريزة الجنسية بالعصاب ، فيبين ويؤكد أن طاقة الغريزة الجنسية (الليبيدو) هى المصدر الوحيد الثابت لطاقة العصاب • فالأعراض العصابية هى النشاط الجنسى للمرضى فى صورة مخفاة • ويبلغ فى ذلك رأيا مؤداه أن العصابيين (الهستيريين والحوازيين ...) منحرفون جنسيا ولكنهم يرفضون انحرافهم رفضا خلقيا شديدا ، وما أعراضهم الا حل وسط بين انحرافهم وخلقهم • وبذلك يصبح تفسير الأعراض بأنها بدائل عن انفعالات مكبوتة لا شعورية ناقصا ، وصحته أنها بدائل لطاقة جنسية مكبوتة حيث تعمل الأزواج المتضادة للغريزة خلفا لبعضها • على هذا النحو يصل فرويد الى أن الحياة اللاشعورية للعصابين دون استثناء تنطوى على ميول ارتكاسية ،كما أنها تتضمن ميلا لتوسيع الهدف الجنسى ليضم امتدادات تشريحية للأعضاء التناسلية ، كما أن الغرائز الجزئية أو الدفعات المكونة للغريزة تظهر فى أزواج من الأضداد تنشط معا وخلفا لبعضها مما يجعل العرض العصابى تحقيقا وسطا لها ، بما يجعل العصابى غير قادر على الانحراف وليس قادرا على ضبطه كما أنه يكون معرضا لعدد كبير من النزعات الجنسية ، على عكس السوى الذى تخضع نزعاته الجزئية لقيادة النشاط التناسلى •

يتأدى فرويد من ملاحظاته عن الغريزة الجنسية لدى العصابين الى وضع مفهوم واضح للغريزة بأنها ممثل نفسى لمصدر اثارة فى الجسم بما يجعلها حدا فاصلا بين الجسمى والنفسى • وعلى أساس هذا المفهوم يضع افتراضا أساسيا يفرق فيه بين المصدر الجنسى للغريزة والهدف الجنسى للغريزة• أما المصدر فهو مناطق توتر جسمى يطلق عليها تعبير المناطق الشبقية (كالفم والشرج ...) والهدف هو خفض هذا التوتر • وتقوم المناطق الشهوية بدور أساسى فى الانحرافات الجنسية كما أن الهدف الجنسى قادر على تحويل خفض التوتر عن أساليبه المباشرة (السادية المازوخية) •

وينتهى فرويد فى مقاله الأول الى صيغة ليبيدية للحياة النفسية • ففى آخر مقاله يفسر غلبة الانحراف الجنسى لدى العصابيين بأنه تعطل يحدث فى مجرى التطور الليبيدى (أى تطور الطاقة الجنسية) بما يؤدى الى انصراف هذه الطاقة الى مسارات جانبية هى المسئولة عن الانحراف • ويرجع السبب فى تعطل مجرى تطور الليبيدو الى وجود قوة نفسية تحول دون انصراف الليبيدو الى الحياة الجنسة السوية مما يضطر الى بلوغ هدفه عن طريق آخر • فملاحظاته تدل على أن ظهور العصاب يتآنى مع البلوغ الفسيولوجى للتناسل• لذلك يعطى فرويد فى ختام مقاله الأول تلميحا مباشرا الى أن الانحراف الجنسى ليس نتيجة لعامل فطرى خاص بالمنحرفين وحدهم ، بل لعامل فطرى عام فى كل الناس يتفاوت فى شدته بينهم ولكنه موجود وهو : وجود بذور الانحرافات لدى الأطفال بصورة مخففة ، بما يجعل الانحرافات الجنسية لا تخرج عن كونها استمرارا لحالة طفلية لبلوغ اللذة •

المقال الثانى : الجنسية الطفلية

يبدأ فرويد مقاله الثانى برفض الرأى القائل بأن الطفولة تخلو من الحياة الجنسية ، كما أنه يرى فى تجاهل الحياة الجنسية للأطفال علة الجهل بالخصائص الجوهرية للحياة الجنسية للراشدين• ويلمح فى سخرية الى اهتمامنا المبالغ بالحياة الجنسية لأسلافنا (الوراثة) دون الاهتمام بحياتنا

الجنسية فى طفولتنا • وقد أرجع فرويد السبب فى تجاهل الحياة الجنسية الى عوامل خلقية والى أمر آخر أجل شأنا هو فقدان الذاكرة بحياتنا الطفلية أو ما يسمى « بالنساوة الطفلية » •

ينبه فرويد الى أن فقدان الذاكرة لفترة السنوات الثمانية الأولى للعمر لم يلفت نظر الباحثين رغم وضوح أهمية انطباعات الطفولة فى حياة الراشدين. وقد أوضح فرويد أن هذه النساوة تطابق فى كثير نساوة العصابيين لمواقفهم المرضية؛ لذلك يتساءل: اذا كانت نساوة العصابيين ناجمة عن كبت للغريزة الجنسية ، ألا يمكن ارجاع النساوة الطفلية الى نفس السبب ؟ ويجيب فرويد على هذا التساؤل بأنه لو لم تكن النساوة الطفلية ما كانت النساوة عند العصابيين والهستيريين بالذات ، وهو ما استطاع اثباته فى مقاله عن علية الهستيريا عام ١٨٩٦ •

بعد ذلك يوضح فرويد بديهية أساسية وهى أننا نأتى الى الحياة بكل مقوماتنا وأهمها الجنس ولا يعقل أن يرد الجنس الى الفرد بعد ميلاده بما يزيد على عشر سنوات • كل ما فى الأمر أننا لم نعتد بما يكفى بملاحظة أنواع النشاط الطفلى وصلتها بالحياة الجنسية للراشدين • فالحياة الجنسية تمر بمراحل كمون تخفى عنا سيالها المتدفق دائما بدليل أن المربين يهتمون دون اعتراف منهم بالحد من المظاهر الجنسية لدى الأطفال • ويرجع فرويد وقفات الكمون الجنسى فى الطفولة الى مصادر تفرضها التربية بالاضافة الى عوامل النمو المحددة عضويا والتى تفرض وقفات كمون معينة • وأهم ما يخرج اليه فرويد من فحصه للكمون الجنسى أنه الركيزة الأساسية للانجازات الحضارية • فقابلية الدفعة الليبيدية للتعطل والكمون يسمح لطاقتها بالانصراف الى نشاطات أخرى (غير مرضية) هى رصيد طاقة العمل الحضارى فيما بعد •

يستعرض فرويد بعد ذلك ضروب النشاطات الطفلية التى لها المظهر الجنسى • ويدخل فرويد الى فهم هذه الضروب من دراسته لمص الأصبع حيث يوضح ما فى هذا النشاط الطفلى من جلب للذة التى تتأتى بخفض التوترات الخاصة بالغشاء المخاطى لتلك المنطقة الشبقية • ويستعير فرويد من هافيلوك اليس تعبير عشق الذات أو الشبقية الذاتية • فالطفل لا يعرف بعد وهو رضيع موضوعا جنسيا الا نفسه وبذلك يصبح الهدف الجنسى لدى الطفل هو اكتشاف موضوع يؤدى له وظيفة خفض توترات المناطق الشبقية ، بحيث يصبح من الميسور أن ينتقل طلب اللذة من منطقة الى أخرى وفق ما تسمح به الظروف الموضوعية وقد أوضح فرويد أن تلك المناطق الشبقية التى يخبر الطفل فيها اللذة والألم كانت تقوم قبل استقلالها بوظيفتها الجنسية بوظائف بيولوجية تعطى النموذج للنشاط الجنسى •

على ذات النسق الذى تصبح فيه المنطقة الفمية مركزا شهويا تصبح فتحة الشرج منطقة شبقية بما يؤتيه توترها وخفضه من مشاعر لذة وألم • ويتبع الانتقال الى المنطقة الشرجية نقلة من الاهتمام بالاعضاء التناسلية فى حدود سن الثالثة أو الرابعة • ويوضح فرويد أن هناك مرحلتين استمنائيتين هما العنية التناسلية تسبق مرحلة الاستمناء فى سن البلوغ حيث يقوم الشخص باثارة منطقة شبقية اثارة ذاتية • لذلك فان فرويد يرجع « نساوات الطفولة » الى الكبت الذى يقع فى حدود سن السادسة الى الثامنة على النشاطات

الجنسية الاستمنائية ، التى تعاود الظهور من جديد فى سن البلوغ• ويدخل فرويد بكشوفه هذه الى صلب المشاكل التى تعرض لها فى علاقة العصاب بالليبيدو فيقدم معرفته بأن التغرير الجنسى فى الطفولة ليس هو المسئول عن الاثارة الجنسية ، اذ أن هذه الاثارة تكون موجودة لدى الطفل وليست فى حاجة الى موضوع خارجى لاستفزازها. أما دور الغواية الخارجية فيحصره فرويد فى تقويته عناصر الانحراف والتأثير المبكر على احتمالات النمو الجنسى • الا أنه يضع أهمية لاحتمال استقلال عناصر القسوة فى الغريزة الجنسية عن النشاط الجنسى المرتبط بالمناطق الشبقية • وأهمية هذه النقطة تأتى من معرفتنا بأن فرويد قد غير فى نظرية الليبيدو تغيرا هاما بعد ذلك بخمسة عشر عاما حيث وضع غريزة العدوان فى موضع هام من الحياة النفسية •

وفى لمحة ذكية يربط فرويد بين ملاحظاته على التهيج الجنسى فى المنطقة التناسلية لدى أطفال سن الثالثة الى السابعة وبين ميلهم الى المعرفة • ففى تلك السن تبلغ رغبة الطفل فى المعرفة وتمتعه بمشاهدة الجديد وفحصه أقصى مداهما • ولكن لم يغب عن فرويد أن قدرا كبيرا من ميل الطفل فى تلك السن الى المعرفة يرتبط بمعرفة ما يتعلق بالجنس ، مما جعله يكاد يعتبر أن باقى نزوعات التعرف لدى الطفل هى تسام لنزعته الى المعرفة الجنسية • ويشرع فرويد مباشرة فى تناول التطلعات الجنسية لدى الأطفال فيوضح أنها تنبع أصلا من أسباب عملية تتعلق بأمنه ودهشته من ميلاد مزاحمين له فى اهتمام أمه به دون أن يهتم بالفروق بين الجنسين • لذلك يعمل الطفل تفكيره فى حل لغز الميلاد دون أن ينتبه منذ البداية الى اختلاف الجنسين • ونتيجة لذلك يظل الطفل معتقدا فى تشابه الاعضاء التناسلية بين الجنسين حتى يكتشف خطأه فلا يجد مفرا من تفسير الاختلاف بأنه اخصاء قد حدث على الجنس الآخر (اذا كان ذكرا) أو لجنسه (اذا كان أنثى) • ومن هذه التخيلات تنبع مركبات الخصاء وحسد القضيب لدى الذكر والأنثى • ومن ثم يشرع الطفل فى العودة الى ظاهرة الميلاد بحصيلته المشوهة للمعرفة الجنسية ، ليصوغ عنها نظرياته الساذجة كالميلاد من الشرج أو من بقر البطن ، تلك النظريات التى تترك انطباعات نفسية تقوم بالدور الهام فى الانحرافات الجنسية فيما بعد • وقد يصحب بحث الطفل فى تلك السن معرفة متيسرة بالجماع مما يجعله يتصوره نوعا من القسوة يمارسها أحد الطرفين واذلالا لطرف آخر • لذلك لا نعدم أن نجد مآل سعى الطفل الى المعرفة الجنسية ينتهى به الى طريق مسدود مما يلقاه ممن يحيطون به من نبذ لتطلعه ، فيدفعه ذلك الى الانعزال بافكاره الساذجة ويكون بها نظرياته عن مستقبله الجنسى ، أى تتكون لديه تلك العوائق التى تسد الطريق أمام المجرى السوى لليبيدو •

ويتناول فرويد فى جزء تال من مقاله الثانى مسألة تطور التنظيم الجنسى، فيوضح فيه أن النزعات الجنسية الجزئية التى تظهر فى المناطق الشهوية المختلفة تتحول تدريجيا لتخضع فى النهاية لقيادة المنطقة التناسلية ، فضلا عن تغير آخر يطرأ على الجنسية الطفلية وهو انتقالها من عشقية ذاتية تتمثل فى الاستمناء الى عشقية غيرية ينتقى فيها الشخص موضوعا يشبع معه غريزته التناسلية الجنسية التى خضعت لها الجزئيات الجنسية المختلفة • ويقسم هذا التطور الى قسمين : الأول هو قبل التناسلى ويضم

التنظيم الفمى أو ما يسميه بالتنظيم الافتراسى ، ويرجع الى عملية تخيل الافتراس فى اللذة الجنسية عملية نفسية هامة ذات وظيفة تتجلى فيما بعد هى عملية التعيين الذاتى Identification • كما يضم التنظيم الشرجى أو ما يسميه بالتنظيم السادى ، ويرجع اليه مظاهر التعارض النفسى الذى يظل قائما فى الحياة الجنسية والنفسية فيما بعد على شكل من الأشكال وصيغته الايجابية والسلبية ثم الذكورة والأنوثة • ويرى فرويد التنظيم الشرجى كذلك منبعا لازدواج العواطف Ambivalence الذى يجعل استقطاب الغرائز أقرب الى الواقع الملموس • أما القسم الثانى فهو التناسلى •

الا أن فرويد لم يترك عرضه لتطور التنظيم الجنسى دون استخلاص قاعدة علمية هامة • فتحليل الأعصبة قد دله على هذه التنظيمات ، كما دله — وهو الأهم — على أن اختيار الموضوع الجنسى فى سن البلوغ يكون غالبا أو عادة قد تحدد منذ الطفولة على شكل من الأشكال • ويؤدى ذلك الى اتجاه الحياة الجنسية فى البلوغ الى اختيار موضوعاتها الجنسية على غرار الموضوعات الطفلية • فأقصى نقطة تبلغها الحياة الجنسية فى الطفولة هى مرحلة الاهتمام التناسلى (أو القضيبى) ، ولكن لا تستطيع المنطقة الشبقية التناسلية فى الطفولة أن تخضع المناطق الشبقية الأخرى لسيطرتها اخضاعا تاما • وعندما يتم ذلك فى البلوغ تكون الغريزة الجنسية قد بلغت قمة انتظامها • على هذا النحو يحدث اختياران للموضوع الجنسى : واحد فى الطفولة والآخر فى الرشد يفصل بينهما مرحلة كمون • ويكون الاختيار الأول أشبه بتيار وجدانى يحدد الاختيار الثانى من حالة العصاب • أما فى حالة السواء فان الاختيار الثانى يتحرر الى حد كبير من الاختيار الاول • ولكن فى أحيان أخرى قد يتعارض الاختياران مما يسبب الحالة التى تدفع الى العلاج التحليلى لبقاء الانحراف والاعتراض الخلقى عليه فى نفس الآن •

ويختتم فرويد مقاله الثانى بفحص مصادر الجنسية الطفلية • يقول فرويد ان الاثارة الجنسية تظهر أول ما تظهر فى أعضاء كانت تقوم أصلا بوظائف عضوية أو عن طريق اثارة مناطق شهوية أخرى أو نتيجة لنزوعات غريزية غير معروفة الأصل بعد كالنظر والقسوة • ويجمل هذه الملاحظات فى أن الجسم البشرى برمته يعد منطقة شهوية لقابليته للاثارة، الا أن بعض أجزائه تكون أكثر قابلية وتركيزا للاثارة • فالاهتزاز الرتيب يعطى الطفل اثارة ولذة تبقى آثارها فى الرشد على شكل عكسى حيث يقوم الكبت بتحويل اللذة من الاهتزاز عند بعض الناس الى قلق شديد • والنشاط العضلى الذى يولع به الأطفال يولد لديهم شعورا باللذة خاصة وأنه يعرضهم للاحتكاك الجسدى بالآخرين ، وهو ما يتبقى أثره فى النزعات الجنسية السادية • ولا تخلو العمليات الانفعالية الشديدة ، السار منها والمؤلم ، من قدرة على الاثارة الجنسية للأطفال • ويتجلى ذلك فى زيادة تهيجهم الجنسى فى مواقف القلق والامتحان والخوف • ولهذا المصدر الطفلى بقاياه فى الحياة الراشدة التى تتجلى فى ضروب من اللذة يجنيها الشخص من تعرضه لأفلام الفزع والرعب أو لمواقف الصدمات يكررها قهرا •

ويعقب فرويد على هذه المصادر بالتنبيه الى حقيقة واضحة فى الاثارة الجنسية وهى أنها لا تتوقف على مقدار المثير بل على كيفه • ولكنه يعتذر رغم ذلك عن الطريقة التى عرض بها

الموضوع معللا قصوره بجدة الموضوع ذاته ولكنه لا ينهى مقاله الثانى دون أن يضع ملاحظتين غاية فى الأهميـة : الأولى ان الحيـاة الجنسـية غريزة مركبة من عناصر عدة قد تختلف شدتها من فرد لآخر • ثانيـا : انه اذا كان من الممكن تفسـير التوتر الجنسى لأحد المناطق الشبقية بوظيفة عضوية لهذه المناطق ، فانه من الممكن أن نفسر اضطراب الوظيفة العضوية ذاتها ـ اذا ما حدثت ـ بما يطرأ على الوظيفة الجنسية لهذه المنطقة من اضطراب •

المقال الثالث : تحولات البلوغ

كرس فرويد مقاله الثالث لمناقشة ما يطرأ على الغريزة الجنسـية من تغير عـندما تخضع لذتهـا للنشاط التناسلى • ومن خـلال مناقشته لانضـواء النشاط الجنسى تحت لواء النشـاط التناسلى يبرز فرويد نظريته الليبيدية فى المرض النفسى والحياة النفسية • ففى المقال الثـانى أبرز فرويد طبيعتـه الجنسية الطفليـة التى تتلخص فى انها استمنائية تتخذ من الشخص نفسه موضـوعا للذتها ؛ كما أنها تظهر من مناطق شبقية متعددة فى الجسم تكون لكل منطقـة قدرتهـا على الاستحواذ على قدر من الليبيدو وتصريفه بما يعطى متعة جنسية • فضلا عن ذلك لا يتضح بجـلاء مصـير هذا الشـتات الغريزى فى فترات عـدة لتعرضـه للكمون فى فترات معينة •

ولكن ملاحظة الحيـاة الجنسية الراشـدة وفى سوائها يشـير الى أن المنطقة التناسـلية ، بظهور وظيفتها البيولوجيـة ، تسـتطيع أن تسحب قدرا كبيرا من الليبيدو الناشـطة فى المنـاطق الشبقيـة المتفرقة واخضاعها لها ، وبذلك تتم عملية سيطرة الحيـاة التناسلية على الحيـاة الجنسية ، فضلا عن التحول من العشقية الذاتية الى اختيـار موضوع جنسى غيرى • ونظرا الى أن هذا التحول يستلزم قيام تنظيمات وروابط جنسية معقدة لدى الشخص فاحتمالات فشله قائم بما يعطى للعصـاب فرصـة للظهور ليدل على أضرب من الكف تعطل النمو•

هذا التحول الضخم الذى يحـدث فى مرحلة البلوغ التناسلى يقـدم عددا ضخما من المشـاكل التى يعترف فرويد بأن حلها لا يتوفر له (وقت كتـابة المقال) • فمن الواضح أن تعطل النمـو الظاهر للأعضاء التناسلية لا يعنى التعطل الداخلى الذى يتضح فى قيام وظيفة الانسال فى فترة معينة• لذلك تكون مصادر الاثارةالجنسية التناسلية ثلاثة: العالم الخارجى كمثير للمناطق الشـهوية المألوفة، والعـالم الداخلى (الافكار) وهـو ما لم يتـأت لفرويد معرفته فى حينه معرفة واضحة ، ورصيد الانطباعات الجنسية الطفلية •

ويناقش فرويد موضوع التوتر الجنسى مناقشة تشير الى بذور نظريته التالية فى كتـابه « ما بعد مبدأ اللذة » (١٩٢٠) • فيفترض فرويد أنالتوتر الجنسى ينطوى حتما على طابع مؤلم يعطى تصريفه الاحساس باللذة • لذلك يتسـاءل فى المقال عن كيفيـة التوفيق بين التوتر المؤلم والشـعور باللذة الجنسـية ؟ فى محاولته الاجابة على هذا التسـاؤل يضع ملاحظتين هامتين : الأولى هى قيـام المناطق الشبقية المختلفـة بدور تجميع التوتر فى المنطقـة التناسلية بما يمكن من القيـام بالنشـاط المخفف للتوتر • فالطاقة الليبيدية التى لم تنسحب من الفم ومن أعضاء اللمس ومن غريزة المشاهدة أو العين تقوم بدور تمهيدى هام فى وضع الأعضاء التناسلية فى حـالة توتر واسـتعداد لخفض التوتر واعطاء

الأحساس باللذة • أما الملاحظة الثانية فتتعلق باختلاف التوتر الناجم عن اثارة المناطق الشهوية غير التناسلية عن المنطقة التناسلية • فالمناطق الشهوية غير التناسلية لا تبلغ من توترها حد الألم بل تبقى فى حدود اللذة بينما تصل المنطقة التناسلية الى التوتر الذى يعطى تفريغ أمله الى أكبر قدر من اللذة • ومن هاتين الملاحظتين يضع فرويد مفهوما مغرقا فى الغريزة الجنسية : لذة تمهيدية تأتى من المناطق الشهوية غير ذات الافراز ولذة نهائية من عضو تناسلى مفرز • ويستعمل فرويد هذا المفهوم فى ايضاح علاقة الجنسية الطفلية بالجنسية الراشدة ، اذا يرى أن الجنسية الطفلية هى لذة تمهيدية ، فضلا عن بقائها على وظيفتها الهامة للجنسية الراشدة باعتبارها مقدمات نشوئية لنوعها وله ، أى مقدمات لبزوغها فى الرشد وبزوغها فى لحظة التوتر ذاتها •

من هذا المفهوم النفاذ يبين فرويد مخاطر اللذة التمهيدية على الحياة الجنسية التناسلية • فيرى أنه اذا اسهمت منطقة شهوية جنسية بقدر غير عادى فى اثارة اللذة وحدثت من الظروف ما أدى الى ثبات ذلك الأثر ، فان المراحل التمهيدية سوف تستحوذ على النشاط الجنسى بما يؤدى الى الانحراف عن الهدف الجنسى • وعلى هذا النحو يضع فرويد وصفا دقيقا للحياة الجنسية ومدى تأثرها بالطفولة ومدى تدخلها فى الأمراض النفسية •

ويتعرض فرويد فى هذا المقال الى المشكلة الهامة وهى مشكلة مصدر الاثارة الجنسية • ويقول فرويد أن هذه المشكلة ليست ذات حل حاسم حتى الآن • فبعض النظريات ترجعها الى تراكم الافراز التناسلى وهو ما لا يتحقق عند النساء أو الأطفال أو الخصيان ، اذ أن هؤلاء يتوترون جنسيا مع غياب الافراز التناسلى• ورأى آخر يرى أن العلة هى أهمية الأعضاء التناسلية الداخلية أو الاجزاء الداخلية منها • وهذا أيضا رأى مرفوض لعدم وجود شواهد على ارتباط التوتر الجنسى بوجود نشاط للغدد الجنسية الذكرية أو الانثوية •

ولكن الرأى الذى يميل فرويد الى الأخذ به هو ارجاع التوتر الجنسى الى تغير كيميائى • ويستدل فرويد على احتمال صحة هذا الرأى من التجارب التشريحية على الحيوانات التى أظهرت احتمال الثنائية الجنسية للغدد الجنسية بما يجعل تحول الذكر الى انثى لا يفقده توتره الجنسى • لذلك يتمسك فرويد بهذا الرأى فى جوهره فيرى احتمال رجوع التوتر الجنسى الى تولد مواد معينة من الأيض الجنسى • والواقع أن تمسك فرويد بهذا الرأى على أمل حل مشكلة التوتر الجنسى كان نابعا من ملاحظاته العيادية على المرضى النفسيين الذين ينشأ مرضهم من اضطراب الحياة الجنسية التناسلية وحدها، وهم ماكان يطلق عليهم تعبير العصابيين الفعليين Actual Neurotics فالمظاهر الاكلينيكية لعصابهم تقترب فى الشبه من حالات التسمم بالمواد المولدة للذة (القلويات) •

على هذا الأساس يضع فرويد نظريته الليبيدية فى الأمراض النفسية • ففى رأيه أن الليبيدو قوة متغيرة كميا يعبر بها عن شدة الغريزة الجنسية • وان مصدره ليس الاعضاء التناسلية وحدها بل يصدر عن أعضاء الجسم كلها • ويختلف الليبيدو عن غيره من الطاقات النفسية بكيمياء خاصة • وعلى هذا النحو لا بد من تصور « ليبيدو للأنا » مسئول بزيادته ونقصانه وتغيره وتحوله عن المظاهر النفسية الجنسية • الا أن دراسة ليبيدو الأنا غير

مستطاع بالوسائل التحليلية النفسية ؟ ولكن يمكن ذلك عندما يتحول « ليبيدو الأنا » الى الاستثمار فى موضوع جنسى فنطلق عليه تعبير « ليبيدو الموضوع » • حينئذ يصبح من الممكن دراسته تحليليا • على أن هذا التصور له شكل آخر : فليبيدو الأنا هو ليبيدو نرجسى ، ويعد مستودعا للطاقة الجنسية التى تتحول الى ليبيدو جنسى موضوعى فيما بعد • وفى ضوء هذا التصور يمكن لليبيدو الموضوع أن ينسحب من الموضوع وأن يظل معلقا أو ينسحب مرة أخرى الى الأنا • وهذه الصيغة قد سمحت لفرويد أن يضع نظرية فى الأمراض النفسية على أساس اقتصاديات الليبيدو واستثماراته فى موضوع أو اختزانه فى الذات وتوزع مقادير منه على مناطق شبقية تمهيدية بما يعطى الانحراف ، فضلا عن اتساق هذه الصيغة مع افتراض الأساس الكيميائى للوظيفة الجنسية •

ويتناول فرويد موضوع تفاضل الرجل والمرأة فيوضح مشاكل تناول الليبيدو الذكرى والانثوى، ويرجح أن الليبيدو ذكرى فى جوهره • ويؤيد ذلك بعدم تمايز الذكورة والأنوثة ، فى الجنسية الطفلية الاستمنائية • ويرجع اختلاف الرجل عن المرأة الى الاختلاف التشريحى للاعضاء التناسلية بينهما بما يثير عمليات كبت ثانوية لدى المرأة تعطى الطابع الجنسى الأنثوى ، التى تقوم أساسا على مقاومة النزعات الذكرية المحبطة •

ويختتم فرويد مقالتهالثالثة بدراسة أثر مراحل الجنسية الطفلية فى اختيار الموضوعات الجنسية فى البلوغ • ويوضح فى هذا القسم الدور الهائل الذى يلعبه التعلق الجنسى المبكر بالمحارم ــ كأمر لا مفر منه ــ فى تحديد مجريات الأمور بالنسبة لاختيار الموضوعاتالجنسية فىالرشد. ففى الطفولة حيث تكون المحارم أولى الموضوعات الجنسية يظهر حاجز المحارم ليحدد بطبيعته وقوته وقوة التعلق بالأم ما سوف يطرأ على النشاط الجنسى من تغير يؤدى الى اختيار موضوعات السواء ، ويؤدى الى الانحراف •

الخلاصة : ويلخص فرويد فى خلاصة المقالات ما قدمه فيها من أفكار تحليلية نفسية • لذلك يجد قارىء هذه الخلاصة أنه بازاء مادة جديدة كل الجدة • ففى المقالات الثلاثة مناقشات مستفيضة لتفاصيل الملاحظات والدراسة الخاصة بالغريزة الجنسية لا يلحظ القارىء فى تتبعه لها أن فرويد قد قدم أفكاراً تحليلية نفسية دقيقة غاية الدقة • ويعود فرويد فى الخلاصة ليستعرض تلك الأفكار بعيدا عن اطارها التفصيلى فتبدو الأفكار أقرب الى المفاهيم النظرية التى يمكن أن تقوم عليها نظرية شاملة فى الامراض النفسية والحياة النفسية برمتها. ففى الخلاصة يتعرض فرويد بوضوح للجنسية بقسميها الطفلى والتناسلى ، ثم تطور الغريزة الجنسية والعمليات التىتعترض هذا التطور• ومن ثم يقدم وصفا دقيقا لوظيفة الكبت والتسامى والتثبيت وأثر الخبرات العارضة على الحياةالجنسية• ولا يخلو هذا العرض التجريدى من لمحات ذات مضامين فكرية عميقة تناولها فرويد من بعد فى مؤلفات ، أبرزها ملاحظته أن الغريزة الجنسية لدى الانسان هى الغريزة الوحيدة التى تظهر على دفعتين تفصل بينهما فترة كمون ، كما أنه الكائن الحى الوحيد الذى يتميز بهذه الخاصية فى غريزته الجنسية • ويتساءل فرويد عما اذا كانت الخاصية الجنسية لدى الانسان هى المسئولة عن خاصيته الحضارية •

مختارات من الكتاب :

يقول فرويد في تناول الغريزة الجنسية : « فلندخل مصطلحين : فنسمي الشخص الذي يصدر عنه الجذب الجنسي بالموضوع الجنسي ، والفعل الذي تستهدفه الغريزة بالهدف الجنسي . ومن ثم تدلنا التجربة العلمية الدقيقة على أن الكثير من الانحرافات تحدث بالنسبة لكل من الموضوع الجنسي والهدف الجنسي ، بحيث تتطلب علاقتهما بحالة السواء فحصا شاملا » .

ويقول في الارتكاس : « ... تبين لنا أننا تعودنا أعتبر الرابطة بين الغريزة الجنسية والموضوع الجنسي أوثق مما هي عليه بالفعل . وقد لقنتنا الخبرة التي تمدنا بها الحالات الشاذة أن ثمة التحاما خارجيا ها هنا بين الغريزة الجنسية والموضوع الجنسي ، نتعرض نحن لاهماله نتيجة لاطراد الصورة السوية التي يتبدى فيها الموضوع غير منفصل عن الغريزة » .

وفي تعريف الغريزة يقول : « ونحن لا نقصد بالغريزة — بادىء ذي بدء — الا أنها الممثل النفسي لمصدر اثارة داخل الجسم دائم التدفق ، على الضد من المنبه الناشىء عن المثيرات المفردة الصادرة من الخارج . ومن ثم فان مفهوم الغريزة من المفاهيم القائمة على الحد الفاصل بين النفسي والجسمي . وان أبسط الفروض وأقربها منالا في طبيعة الغريزة هو أنها لا كيف لها في ذاتها بل تعتبر مجرد مقياس للعمل الذي تطالب به الحياة النفسية. وان ما يفرق بين الغرائز ويخلع عليها الصفات النوعية لهو علاقتها بمصدرها الجنسي وأهدافها » .

ويقول في تخلل القسوة للغريزة الجنسية : « وتنمو عناصر القسوة في الغريزة الجنسية لدى الأطفال نموا أكثر استقلالا عن النشاط الجنسي المرتبط بالمناطق الشهوية ... والتحليل السيكولوجي الأساسي لهذه الغريزة لم يتم بعد — كما نعلم — على نحو مرضي ، ولنا أن نفترض أن الدافع الى القسوة ينحدر عن غريزة السيطرة ، وأنه يظهر في فترة من الحياة الجنسية لم تقم فيها الأعضاء التناسلية بعد بالدور الذي تقوم به فيما بعد . فهو اذ ذاك يسيطر على مرحلة من الحياة الجنسية سوف نصفها بعد حين بالتنظيم قبل التناسلي » .

وفي اختيار الموضوع الجنسي : « ويقوم فرض التنظيمات قبل التناسلية في الحياة الجنسية على تحليل الأعصبة ، فبدون معرفة بها يكاد يكون من الممتنع تقديرها ... ولاكمال صورة الحياة الجنسية الطفلية لا بد من افتراض ان اختيار الموضوع اختيارا تتميز به مرحلة البلوغ من النمو ، غالبا أو عادة ما يتم في سني الطفولة ... يمكن اعتبار اختيار الموضوع في زمنين أو حدوثه على دفعتين حدثا نمطيا . وتبدأ الدفعة الأولى مابين السنتين والخمس سنوات ثم تتوقف أو تتقهقر ابان فترة الكمون ... وتظهر الثانية في البلوغ وتحدد الصورة النهائية للحياة الجنسية » .

ويقول في تحولات البلوغ : « بحلول البلوغ تظهر تغييرات يتعين عليها أن تمضي بالحياة الجنسية الى صورتها السوية النهائية . فالغريزة الجنسية كانت حتى الآن عشقية ذاتية : وهي تقع الآن على موضوع جنسي . وكان نشاطها .. صادرا عن غرائز ومناطق شهوية متفرقة تسعى .. الى لذة ما، باعتبارها الهدف الجنسي الوحيد . ويظهر الآن هدف جنسي جديد ، تتضافر الغرائز الجز...

جميعا على ادراكه ، بينما تخضع المناطق الشهوية لأولوية المنطقة التناسلية » •

وفى تعريف الليبيدو : « ونحن نميز هـذا الليبيدو ـ من حيث أصـله الخاص ـ عن الطاقة التى لا بد من افتراضـها وراء العمليا تالنفسـية عامة ، ومن ثم فنحن ننسب اليه أيضا طابعا كيفيا • وفى التمييز بين طاقة ليبيدية وأخرى نفسية نعبر عن مسلمة تقول ان العمليات الجنسـية فى الكائن العضـوى تختلف عن العمليات الغـذائية بكيمياء خاصة • وقد بين لنا تحليل الانحرافات والأعصبة النفسية أن هذا التهيج الجنسى لا يصدر عما يسمى بالأعضاء التناسلية وحدها ، بل عن أعضاء الجسم كلها » •

وتعبيره عن الطبيعة الجنســية المميزة المبشر : « ومما يبدو لنـا جديرا بالملاحظـة حدوث النمو الجنسى لدى البشر على دفعتين • ومن ثم انقطـاع هذا النمو فىفترة الكمون • ذلك ـ فيما يبدو ـ هو أحد الشروط التى تهيىء بنى البشر للارتقاء فى سلم الحضارة وان كانت تميل بهم الى العصاب ولا نظير لهذا على ما نعلم لدى أقارب الانسان من الحيـوان • ولا بد من البحث عن هذه الخاصـية الانسانية فيما قبل التاريخ لدى الجنس البشرى » •

وفى علاقة العصـاب بالانحراف : « ان جزءا كبيراً مما تلقـاه آرائى هذه من معارضة قائم على اعتبار أن الحياة الجنسية التى أرد اليها الأعراض العصابية النفسية مطابقة للغريزة الجنسية السوية • بيد أن التحليل النفسى يعلمنا أكثر من هذا • فهو يبين أن الأعراض لا تتولد البتـة على حســاب ما يسمى بالغريزة الجنسية السوية (أو على الأقل لا دائما ولا فى الأغلب) ، وانما هى تعبير تحولى عن غرائز يمكن وصفها ـ ان أمكن التعبير عنها مباشرة فى الخيـال والسـلوك دون أن ينشغل بها الشعور ـ بأنها منحرفة بأوسع معـانى الكلمة • ومن ثم تتكون الأعراض جزئيا على حساب الحياة الجنسية السوية ، والعصاب ـ ان جاز التعبير ـ هو الصورة السالبة للانحراف » •

د • أحمد فائق